المفضلين الذين تناولهم العقاد ، كما تناولهم زميله المازنى بالدراسة والنقد ، ولابن الرومى فى شعر المشاهدات اليومية العادية - أى شعر عابر السبيل- مقطوعات فنية رائعة مثل وصفه للخباز وغيره ، ولكن العقاد لا يستطيع أن يتمهل عندما يصف ليخلق شيئًا من لا شىء ، وينحت الصور الجميلة من الحركات التافهة ، كما يفعل ابن الرومى ، بل نراه يفر من موضوع وصفه إلى التداعى ، وهو تداع لا يسوقه الخيال الشعرى ولا الفيض العاطفى بل يسوقه الفكر . والعقاد بطبيعته رجل فكر قبل كل شىء ، وكثيرًا ما يأتى تداعيًا متلمسًا مجتلبًا قد يدل على براعة ، ولكنه لا يدل على شاعرية مصورة أو عطف إنسانى عميق ، على نحو ما أوضحنا فى الجزء الأول من كتابنا «الشعر المصرى بعد شوقى» والحديث عن الشارع والزقاق والقرية استطاع الاشتراكيون الواقعيون أن يخلقوا منه شعرًا وأدبًا رائعًا فى كثير من الحالات ولكن العقاد فى «عابر سبيل» قد آثر أن يتحدث عن الأشياء والحيوانات عن أن يتحدث عن الناس وحياتهم ، وما كان له أن يصدر عن تلك النزعة التى يعاديها فى عنف .

ومن البين أنه بغير مثل هذه الفلسفة الحانية على الناس العاديين وكفاحهم الشاق فى الحياة ، من الممكن أن تؤدى مثل هذه النزعة فى شعرنا العربى إلى الانتكاس نحو الهوة التى كان قد وصل إليها قبل البارودى عندما انتهى الأمر به إلى معالجة التوافه مثل : وصف القلم أو المحبرة أو هدية عتب أو ما شاكل ذلك من موضوعات كان الشعراء يفتعلون فيها الشعر ويتسابقون فى إظهار المهارة اللفظية أو توليدات الخيال دون أن يحفزهم إلى قول الشعر حافز إنسانى قوى أو عاطفة حانية أو خيال خلاق فى غير تصنع أو اجتلاب .